

دور المسجد الجامع في المدينة العربية التقليدية



تبين النظرة العجلى للنسيج الحضري بالمدينة العربية التقليدية كالتى نراها في المدن كالقاهرة أو الرياض أو فاس أو مكناس، أو الكويت القديمة، أو صنعاء، أو أي من المدن الأخرى على طول امتداد الوطن العربي وجود مجموعة من العناصر العضوية التي تشكل عماد هذا التكوين النسيجي المتميز، ويسهل لدى اعمان النظر بهذا النسيج العضوي تبين مجموعة من الخصائص التي تميز المدينة العربية عن غيرها من مدن العصور الوسطى من حواضر العالم القديم آنذاك كروما، أو أثينا، أو غيرها، ويسعى هذا المقال لاحاطة القارئ علما بما يتعلق بالنسيج الحضري في المدينة العربية من ناحيتين: الأولى ادراك خصائص هذا النسيج العضوية العامة، والثانية التركيز على أهمية المسجد الجامع في علاقته العضوية بهذا النسيج من جهة، ودور المسجد الجامع نفسه في تشكيل النسيج الحضري من جهة أخرى. كما يختتم المقال بالإشارة لدور المسجد المعاصر كتمهيد - والذي سيشكل موضوع مقال تال.

فما هي مميزات النسيج الحضري في المدينة العربية التقليدية وما هو دور المسجد الجامع ضمن هذا النسيج؟

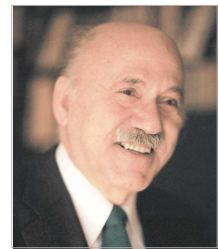
د. وليد السيد

معماري بجامعة لندن

معماري الشهر محمد صالح مكية

لنارند - لندن.

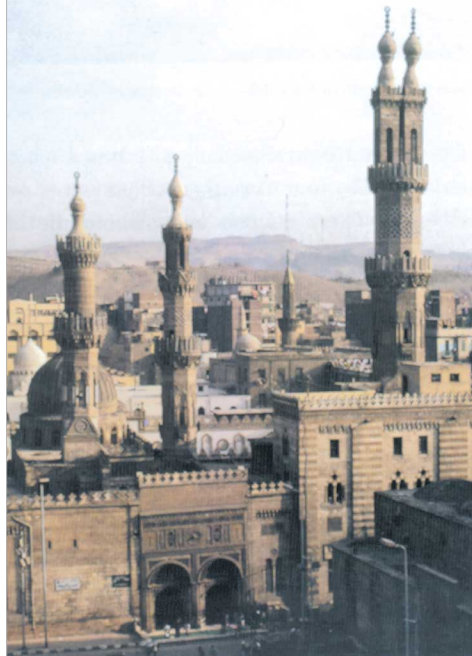
يعتبر المعماري البروفيسور محمد صالح مكية المولود ببغداد عام ١٩١٤ واحدا من أبرز اعلام العمارة العربية وأحد رموز الفكر المعماري العربي المعاصر، وتمتد مساهمات مكية على رقعة واسعة من العالم العربي ابتداء من بغداد بالعراق منذ مطلع الستينيات ومنتصف الثمانينيات إلى دول متعددة من شبه الجزيرة العربية امتدادا من الكويت إلى مسقط وعمان، ويعتبر بعض نقاد العمارة الحديثة مساهمات مكية للعمارة العربية بمكانة رفيعة المستوى ضمن ابرز المعماريين العرب المعاصرين. وقد تلقى مكية دراسته الاكاديمية في مدارس بغداد مع بداية الثلاثينيات من القرن الماضي، والتحق بدراسة العمارة بمعاهد العلم الغربية مع بداية الاربعينيات، حيث درس المرحلة الاولى في جامعة ليفرول بالانجلترا حيث حصل على شهادة الدبلوم العالي، ومن ثم اكمل دراسته لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة كامبردج وكانت اطروحته متعلقة بأثر المناخ في تطور العمارة في منطقة حوض البحر الابيض المتوسط، والتي يعتبر أنها كانت بداية انطلاقا معمارة فكرية لمزاولة وتطبيق نشاطه الفكري المعماري. ويبدو للمتأمل في نمط عمارة مكية والتي تمكس فترة ممتدة من الفكر المعماري العالمي والاقليمي والمحلي تباينا نسبيا يمكن ادراكه خصوصا للدراس لتطور الفكر المعماري الحديث على ايدي رواد العمارة الغربية أمثال غروبوس ولوكوربوزيه، وهم ممن عاصر مكية، إضافة إلى انفتاحه على الغرب في فترة تلقيه لتعليمه المعماري، وعلى الرغم من ذلك كله وبالرغم من امتداد فترة مزاولة مكية للمهنة طوال خمسين عاما إلا ان انتماءه للتراث وأوجه من البيئة التقليدية لا يزال هو السمة المهيمنة لفكره وتطبيقاته المعمارية، ويعد بذلك من رواد المعماريين المعاصرين في قدرته على التوفيق بين الخلفية



الأكاديمية التي تقع ضمن اطار لا ينتمي للثقافة التي نشأ بها أو عاد ليلازل فكره وتطبيقه بها. والمتتبع لسلسلة محاضراته والندوات التي أسهم بها طوال هذه الفترة من العطاء المعماري يلحظ بسهولة حرصه على تبليغ امانة الفكر المعماري وغيرته على ايصال هذا الفكر للاجيال اللاحقة، وكم تردد

على مسامحة الكاتب قول مكية ان المعماري هو بمثابة خليفة وحامل امانة على وجه الارض (بما يحمل من مهمة دقيقة لتلبية احتياجات المجتمع من جهة، وتكريس مفاهيم وقيم سامية من خلال التصميمات التي يقوم بها)، ولا تخلو فترة الخمسين عاما من مزاولة المهنة من آمال لم تتحقق اذ اصطدمت على صخرة البيروقراطية أو ما يحفل بعض ارجاء من الوطن العربي مما منع تحقيق الكثير من المشاريع والافكار الطموحة سواء على المستوى الحسي التطبيقي، ام على المستوى الفكري النظري.

وبالرغم من كل هذه الارهاسات التي غصت بها تلك الفترة بما فيها من تقلبات سياسية وحروب عالمية، فإن بصمات الفكر المعماري تظل شاهدة لهذا المعماري الخضر في مختلف المجالات التي يمكن لمعماري رفيع المستوى ان يساهم بها. فنتسروح مساهمات مكية من كونه مربى اجيال كاستاذ جامعي ومؤسساً لقسم العمارة تخرج على يديه الكثير من المعماريين بجامعة بغداد على مدى سنوات طويلة من العطاء، امتدادا بمشاريع التطوير الحضري والتخطيط العمراني كتخطيط مدينة مسقط وعمان، أو مشاريع الحفاظ المعماري كالعديد من البيوت التي تحفل بها السيرة الذاتية خاصة مثل بيت كريمة بسقط، عدا عن المشاريع والمساقبات المعمارية كمسجد الكويت الكبير، أو الجامع الكبير بعمان، أو مجمع المحاكم بالملكة العربية السعودية، أو بوابة البحرين، وغيرها الكثير من المشاريع التي لا يمكن بحال ذكرها هنا، وإضافة إلى ذلك فإن مكية ينادي بفكرة تكاملية الحرف اليدوية والتقليدية والعمارة التي تنبع من الفكر الاجتماعي الذي يلي ويعكس حاجات وطموحات المجتمع. وتعاكس أعماله في مسجد الخلفاء ببغداد هذه التكمالية التي ينادي بها، ان يعد الخط والاعمالي الخشبية التقليدية، كجزء من العمل المعماري لا إضافة للعمل ذاته. وبذا فقد كرس على مدى اعوام طويلة هذه العلاقة بين المعماري والحرفي والتي اقتقدت في الكثير من الاعمال والفكر المعماري المعاصر. وهكذا يعيد مكية للفكر المعماري العربي المعاصر ركيزة اساسية حرم ان يعكسها في اعماله وينقلها إلى الجيل المعاصر من الشباب الذين يرى فيهم دعائم نقلة جديدة في النهضة المعمارية العربية المعاصرة.



جميع المميزات السابقة تحوي بين طياتها اجابة ضمنية عن الشق الثاني للتساؤل موضوع المقال وهو: ما هو دور المسجد الجامع في تشكيل النسيج الحضري العمراني الحضري في المدينة العربية التقليدية؟ تشير الدراسات التاريخية لمعظم المدن العربية التقليدية الرئيسة بمدينة بغداد الدورة التي انشأها المنصور، أو القاهرة أو غيرها بتوسط المسجد الجامع للحيز الفراغي للمدينة كمركزية تتكاثرت منها وحولها الانشطة العمرانية الحضرية ومنها تتحدد العلاقات الفراغية بشقيها الموجب (الكلية) أو السالب (الايحة الفراغية). وبذا وبلاخطة ما تم التمهيد له من خصائص المدينة العربية التقليدية يمكن النظر إلى هذه الخصائص على انها وليدة ونتاج التفاعلات المتباعدة من هذا النواة المركزية البورية للمدينة التي تنطلق من المسجد الجامع وتطيقا ومعنوا. إضافة إلى ما يوفره المسجد من اجاءات افقية يشتمل الحيز الفراغي المحيط به وتوفر الساحة المركزية الرئيسة للمدينة بموقع ملاصق له، أو من خلال مذنته التي ترمز رأسيا وبصريا إلى أهمية الحدث ومركزيته ضمن النسيج العمراني المحيط. ومن هنا يبرز التساؤل البيدي التالي: هل ما زال المسجد الجامع يحمل هذا الدور البوري المركزي من ناحية، أو المعنوي الوظيفي من ناحية أخرى في النسيج العمراني الحضري للمدينة العربية المعاصرة؟ تشكل الاجابة عن هذا التساؤل موضوع المقال التالي للاسبوع القادم.

لاحقا)، ومثال آخر ما نراه في القصة الرئيسية بالمدينة حيث تبدأ بعض المعماريين واضح مهيمن وتنتهي بعنصر ذي أهمية مماثلة (كما نراه في قصة المعز لدين الله الفاطمي حيث تبدأ مجموعة عناصر معمارية تشكل بوابة ضمنية كمجموعة قلاوون والتي تتشكل من مفردات معمارية كالقعد والسبيل بما يحاكي البوابة، وتنتهي بباب زويلة جنوبا)، ومن الامثلة الأخرى ما نجده في الطريق غير النافذ الذي يعلن للمتجاور عن بداية الحرم الخاص ببوابة قوسية رمزية تنبئ الزائر غير المحلي عن نهاية الطريق العام وتبعية الحيز الفراغي للملكية خاصة، هذه الامثلة وغيرها هي من أبرز المحددات الفراغية الحسية للعلاقات الوظيفية ضمن النسيج الحضري بإطاره العام والخاص مما يفرز طبيعيا حدود ومجالات التفاعل بين القاطنين والزوار والمارة أو عابري السبيل والدخلاء، وينجم عن ذلك التدرج الفراغي الهرمي للحيز الفراغي العام وتدرجا وتطيقا آخر يتحدد بثلاث انواع من التفاعل الوظيفي حسب تعريف د. جميل اكبر لها في كتابه عمارة الارض في الاسلام هي: اما سيطرة أو استخدام أو ملكية (احدهما أو اثنتاهما أو كل منهما في آن واحد تختلف بحسب موقع وطبيعة الانشطة ضمن الحيز الفراغي بإطاره العام والخاص وموقع الحيز الفراغي ذاته ضمن النسيج العمراني للمدينة ككل.

ثالثا: تعلن الانشطة التي تحويها الايحة الفراغية المختلفة عن طبيعة وأهمية ذلك الحيز الفراغي وبالنسبة لعلاقته مع الايحة المجاورة السابقة واللاحقة. ان كما ان الحيز الفراغي تتكامل معاملة فيزيائيا بالمحددات الحسية الواضحة أو الضمنية كما سبق ذكره، كذلك تتحدد أهمية من ناحية وظيفية سواء من حيث الاستخدام أو السيطرة بمدى أهمية الانشطة التي تفتح مباشرة على ذلك الحيز الفراغي والتي غالباً ما تحدد حجم التدفق من وإلى ذلك الحيز الفراغي مما يحدد بالتالي وفي معظم الاحيان سعة أو حجم ذلك الحيز الفراغي، ولذلك فغالبا ما يتفاحم التباين في انسيابية الحيز الفراغي الحضري مع الانشطة المنزوعة على جوانبه وتتفاعل معه طرديا. ولذا فإن المتجول على سبيل المثال ضمن ايقعة أو قسبة أي من المدن العربية التقليدية لا بد وان يلحظ هذه التغيرات المترددة احيانا أو المتباينة احيانا اخرى والتي تتسبب ضمنيا عن مدى أهمية الحدث العمراني المحيط بذلك الحيز الفراغي. ومن ذلك وما هو متعلق بالمسجد الجامع كاحد ابرز الاقطاب المؤثرة في النسيج العمراني الحضري بالمدينة العربية التقليدية ما تلحظه من (انتفاضة) مفاجئة بالحيز الملازم لمداخل المسجد تمهيدا للانتقال من الفراغ العام للمدينة إلى حيز المسجد من جهة، واعلانا لأهمية وحجم التدفق من وإلى المسجد الجامع من جهة أخرى.

رابعا: يمتاز الحيز الفراغي الحضري للمدينة العربية التقليدية باختوائه على عنصر المفاجأة في الانتقال للمتجول به من حيز لآخر، وذلك ان طبيعة الانتقال والتفرع ضمن الحيز الفراغي الملتوي لا تسمح للمتجول بمد النظر بشكل متكامل مع امتداده مما يصنع امكانية المفاجأة بالحدث بشكل غير تدريجي، إذ كثيرا ما تحفل المدينة العربية التقليدية بالطرق الملتوية التي تفتح فجأة على ساحة عامة لا يمكن تبينها بمجرد مد النظر من خلال نهاية الطريق الملتوي الذي يقود للمتجول اليها.

خامسا: وهي ميزة تنبئ من الميزة السابقة، وهي احتواء الحيز الفراغي الحضري للمدينة على بؤر عمرانية حضرية بصرية غالبا ما تكون محلية لا على مستوى النسيج العمراني العام للمدينة إذ لا يمكن تبينها عن بعد نظرا لتعرج وضيق الطريق المؤدي اليها، وهذه البؤر البصرية تشكل محطات على الطريق وتعلن عن أهمية الحدث العمراني الحضري أو البني الذي ترمز اليه. ويختلف موقعها اقبسا او عموديا بحسب طبيعتها، ومن أبرزها سبيل الماء الذي احيانا ما يتوسط الطريق العام لطبيعة ووظيفته في ري عابري السبيل أو الأعراب عن المدينة، أو هناك المذنتة التي تتشكل مع خط سماء الطريق العام بشكل ايجابي يعلن بأهمية الحدث العمراني الملازم لها.

يتميز النسيج العمراني الحضري في المدن التقليدية بجملة من الخصائص البصرية الواضحة التي يسهل تبينها دونما الحاجة إلى اللجوء إلى التحليلات الهندسية المعقدة، أما يمكن تبينها بالعين المجردة ابتداء لدى مطالعة أي منها في أي من المدن العربية المشار إليها آنفا، وهذه الخصائص هي:

أولا: يمتاز النسيج العمراني الحضري بالتردد الهرمي المتناقص فيما يخص الحيز الفراغي العام، وذلك ان الفراغات العامة في المدينة العربية التقليدية تبدأ من الساحة العامة إلى القسبة الرئيسية ثم إلى الطريق العام، ثم إلى الطريق الخاص بالمتجاور السكنية، ثم الطريق الخاص لمجموعة البيوت، انتهاء بالطريق غير النافذ، وعلى الرغم مما يبدو للوهلة الأولى نظريا من اشتراك معظم المدن بما فيها من العصور الوسطى ببعض هذا الهرم التدرجي المتناقص، إلا ان طبيعة الانتفاخ ما بين الفراغات الخاصة ضمن المباني وبين الفراغات العامة واتصالها هي ذي طبيعة عضوية وذات خصوصية في آن واحد للنسيج العمراني الحضري للمدينة العربية بما تقتدر به بوضوح عن غيرها من مدن الحضارات الأخرى.

ثانيا: ان طبيعة الايحة الفراغية العامة المترددة تتحدد بمجموعة من العناصر الطبيعية الواضحة في معظم الاحيان، وبطريقة ضمنية ذات دلالات رمزية احيانا أخرى والتي تعلن عن بداية ونهاية الحيز الفراغي، فمثلا تتحدد الساحة العامة بمحددات كتلية محيطية من جهاتها، وحيثما تعلن ضمينا بتبنيها لمبنى واضح مسيطر (كالمسجد الجامع وهو ما سنفصله



من اخبار العمارة العالمية:

جمعية المهندسين المعماريين البريطانية

RIBA (The Royal Institute of British Architects - London)

عالية أخرى مثل جوائز تصميم الإسكان Housing Design Awards وتمنح في الخامس من أيار، وهناك مجموعة أخرى عديدة تتناول موضوع (مبنى العام - Build- of the Year) والتي تشجع المعماريين والطبية وتخصص ضمن اهداف وبرامج يعلن عنها ضمن برنامج للجائزة وضمن شروط خاصة بكل جائزة.

ومن هذه الجوائز الأخرى: Pritzker Architecture Prize وتمنح للمعماريين معاصرين تعبر أعماله عن فكر راسخ وسهوية ابداعية والتزام بالانسانية في مجال العمران، ومن المعماريين الذين منحوا هذه الجائزة Rem Kool- haas للعام ٢٠٠٠، Renzo Piano للعام ١٩٩٨، والياباني Tadao Ando للعام ١٩٩٥، والمعماري James

على المستويين المعماري والتخطيطي، ومن هذه الجوائز جائزة RIBA الخاصة بالتعاون مع مجلة Architect s Journal والتي تتناول موضوع (مبنى العام - Build- of the Year) والذي سيتم اعلانه (وقت كتابة هذا المقال) في القاعة الكبرى للمتحف البريطاني الشهير في العشرين من شهر أكتوبر والجماعات وبين المهنيين من المعماريين. ونظرا لدقة وشدة المراقبة على سير المهنة وشروط الانتساب للجمعية فقد اكتسبت جمعية المعماريين البريطانية شهرتها، وعدت من اهم الجمعيات المعمارية العالمية.

وتقع الجمعية بوسط لندن قرب شارع اكسفورد الشهير ضمن مبني مستقل صمم في بداية الثلاثينيات من القرن الماضي من قبل Grey Wornum يحتوي قاعات محاضرات، ومسرحاً يتسع لاربعمائة شخص، ومكتبة خاصة للاعضاء انما يمكن استخدامها من قبل الزوار بشرء تذكرة يومية خاصة، وكافتيريا، وقاعات عرض، ومعرض دائم لبيع الكتب، وتنظم جمعية المعماريين البريطانية بالإضافة إلى ما ذكره جوائز دورية تقديراً لأهم الانجازات



من منشآت العصر العالمية

افتتاح واغلاق قبة القرن الجديد (Millennium Dome) (عين لندن) و (London Eye)

لنارند - لندن.

الاول من كانون الثاني للعام ٢٠٠٠، وتقع هذه القبة التي عدت اصخم قبة في العالم في منطقة غرينتش الشهيرة، بيد انه لم يقدر لهذا المشروع الاستمرار إذ ارتبط بمشاكل سياسية ومشاكل مالية تحول دون الاستمرار في افتتاح هذا المشروع، وينتظر البت في مصير هذا المشروع حيث اتبعت امكانيات تحويله إلى متنزه سياحي ذي عائد اقتصادي لتغطية النفقات. وتقع بين محطة واترلو الشهيرة.

مع حلول القرن الحادي والعشرين بالتقويم الميلادي، افتتح في لندن منشأتين اعتبرتا من أوجه التقدم التكنولوجي الغربي، أولهما كان القبة الضخمة التي ضمت تحت طياتها مجموعة من المعارض والأقسام التي تعرض نماذج للحضارة ومدينة الامة وانعكاسا للاقتصادية السائدة.

جمعية المعماريين البريطانية تقع على العنوان التالي: 66 Portland Place, London W1B 1AD, UK اما العنوان على شبكة الانترنت فهو: http://site.yahoo.net/about-riba

بافتتاحها من قبل ملكة بريطانيا في